الحداثة الشعرية

الحداثة في الاصطلاح

إن الحداثة اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية، و كل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة، ذلك أنها تضمن كل هذه المذاهب الفكرية وهي لا تخص مجالات الإبداع الفني، النقد الأدبي فحسب، و لكنها تخص الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية و الفكرية على حد سواء وهي بهذا المفهوم اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان و ما هو كائن في المجتمع."

وتمثل الحداثة كذلك جدة الإبداع، وتحرره من المحاكاة و التقليد و ذلك بإنجاز العمل لم يؤت بمثله من قبل، و لم يسبق إليه مبدعه على صعيد الشكل والمضمون، وفي الحداثة الشعرية تعبر عن روح العصر بأبعاده وأحداثه و قضاياه ، تعبيرا حضاريا، مما يعكس تغلغل الشاعر في عصره وارتباطه بالحياة ارتباطا عضويا جوهريا فهي تعتبر مشروع مفتوح بين الشعراء و شورى مستمرة بينهم.

الحداثة عند الغرب:

الحداثة مذهب فكري غربي، ولد ونشأ في الغرب، ثم انتقل منه إلينا، إذ نجد في الإنجليزية لفظان للحداثة (Modernity)،(Modernism) إن لفظ Modernity): تعني المعاصرة والعصرية، والمعاصرة في تعريفه أو تعبيره: "إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن."

وأما لفظ Modernismفحسب ترجمته تعني "الحداثة" التي هي عنده مذهب أدبي أو نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع، والانقلاب على القديم الموروث بكل جوانبه ومجالاته.

وقد ظهرت كلمة الحداثة Modernite عند الأديب الفرنسي بلزاك سنة1822، وكانت تعني: العصر الحديث، ودلت الكلمة عند الشاعر الفرنسي بودلير على بؤس الزمن الحاضر، وبهذا المعنى يتكلم الشاعر الألماني نيتشه عن الحداثة على أنها زمن الانحطاط والعدمية.

وتعد الرومانسية البدايات الأولى للحداثة الشعرية، وقد حمل لواءها في الغرب: الشعراء البريطانيون (بايرون وشيلي وكيتس, والشاعر الألماني شيلر. ثم كان هناك التطور إلى المذهب البرناسي.ثم ظهرت المدرسة الواقعية التي تطورت إلى الرمزية التي كانت الخطوة الأخيرة قبل الحداثة.

وكان من رموز المدرسة الرمزية التي تمخضت عنها الحداثة الشعرية: الأمريكي إدغار آلآن بو الذي تأثر به كثير من رموز الحداثة, وقد نادى إدغار بأن يكون الأدب كاشفًا عن الجمال ولا علاقة له بالحق والأخلاق.)

فالحداثة في الغرب: «نسق من الانقطاعات التاريخية عن المراحل السابقة، حيث تهيمن التقاليد والعقائد ذات الطابع الشمولي الكنسي، وهو ما يؤكده الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت- باعتباره من آباء الحداثة الغربية - «في كل أعماله أن شرط التنوير والحداثة هو الحرية... بمعنى أن العقل يجب أن يتحرر من سلطة المقدس ورجال الكهنوت والكنيسة وأصنام العقل.

يقول صالح جواد الطعمة: «إن الحداثة الغربية تعكس معارضة جدلية ثلاثية الأبعاد: معارضة للتراث، ومعارضة للثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانية والنفعية، وتصورها لفكرة التقدم،

ومعارضة لذاتها كتقليد أو شكل من أشكال السلطة أو الهيمنة، أي: أنها ثورة دائمة أبدية في تطلعها المستمر إلى قيم جديدة، وأشكال أو أساليب تعبيرية جديدة.

رواد الحداثة الغربية:

كان من رواد الحداثة الغربيين بعد بودلير تلميذ ادغار الشعراء الفرنسيون: رامبو ومالارميه وبول فاليري, ووصلت الحداثة إلى غايتها على يد الأمريكي عزرا باوند والإنجليزي توماس إليوت.)

وقد عبر شعراء الحداثة عن الخراب لإحساسهم بالغربة في المدينة العصرية، وشعورهم بالعزلة ولا أدل على ذلك من قصيدة (الأرض اليباب) للشاعر الأمريكي توماس ستيرنز إليوت التي يعبر فيها عن مأساة الإنسان المعاصر في الحضارة الغربية. وإذن، فشعر الحداثة في الغرب جاء احتجاجا على ما أصاب العقل الغربي من انهيار، وما حل بمدنيات أوروبا من دمار في أعقاب حربين عالميتين

إن الحداثة الشعرية عند هؤلاء «حركة إبداع تواكب الحياة في تغيرها الدائم، فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء، يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة عن السلفي والمألوف.

حداثة شارل بودلييز:

توجه شارل بودلييز إلى عالم الكتابة عله يتمكن من تجاوز أبجديات الواقع الجريح الذي عايشه، فقد نبذ القيود القديمة، وحاول استيعاب تناقضات المدينة في كتاباته الشعرية، ليحقق قفزة خارج السياق، لذلك قال: "عجنت الطين وصنعت منه الذهب"، حيث عمل على إضفاء الروح الصوفية على ركام المدن وبعث المعنوي في المادي والجمال في القبح (يوقظ في القبح سحرا جديدا بحسب قوله).

من هنا يقول ت س إليوت أعتقد أني قد تعلمت من بودلير المظاهر الشائنة للمدينة الحديثة بالذات، وإمكان انصهار الواقعية الأكثر قذارة فيها والرؤى الخارقة وإمكان تجاوز المبتذل والخيالي.

وبذلك كان للحداثة عند بودلير مظهران: يعبران على نشاز وتنافر

وجه سلبي: وهو ما عكسه عالم المدينة الكبيرة، بما فيه من عقم وقبح وخطيئة (عالم التقدم الذي يعني ذبول الروح وضمورها التدريجي وسيطرة المادي).

ووجه إيجابي فاتن : إذ إن كل ما هو بئيس متدهور يصبح فاتنا وعنصر إثارة يمكن للشعر أن يحتويه ويعبر عنه.

ومن ثمة تحمس بودلير لعزل الطبيعة وتأسيس مملكة الاصطناعي المطلقة، فقد هجر النزعة الذاتية العاطفية في شعره ليعبر على نظرية التقابل والتماثل التي استعارها من الفيلسوف السويدي سودنبورغ SWEDENBORG وتقوم على أن المادي يرمز للروحي، فعالم الحس يماثل عالم المثل كما يماثل الظل الأصل، لذا فحالات الضياع والانهيار التي تنتاب الإنسان المعاصر تشتاق إلى عالم مثالي تغدو خلاله وجها للجمال.

على أن هذه المفاهيم التي كونها بودلييز عن الحداثة لم تستطيع أن تسعفه على إيجاد باب الخلاص وسط الجحيم العصرية المولدة للقلق والوساوس، فظل موزعا بين ثنائية الانخطاف والسقوط

تلك هي الحداثة في اختلاطها وحيرتها كما تبدو عند بودلير أن يكون معذبا حتى العصاب نتيجة لاحتياجه إلى الإفلات من الواقع، لكنه يكون أيضا عاجزا عن خلق تعال وعاجزا عن الاعتقاد في

تعال له دلالة، وإذن فهي حداثة تقود الشاعر إلى دينامية من التوترات المستعصية وإلى تذوق الغامض في حد ذاته.

الحداثة عند رامبو:

بدأ رامبو بكتابة القصيدة التقليدية وانتقل إلي القصيدة الحرة ثم إلى قصيدة النثر، وقد عمل على خلخلة بنية الشعر بلغته ورؤاه، فهو يصيح في إشراقاته الملتهبة قائلا: علينا أن نكون حدثيين بكيفية مطلقة.

وتعمل هذه الحداثة المطلقة عند الشاعر على تفتيت العالم، حتى تصبح الفوضى هي المجال المحسوس الذي يمكن أن يتجلى فيه السر الخفي للمجهول.

ومن أجل بلوغ ذلك المجهول الذي يسوده الاضطراب والتشويش، تتجرد الأنا عند رامبو من نزعنها البشرية ومن نفسها، فتطرح ذاتها لتغوص في الأعماق، وهناك تغلب عليها الروح الكلية الجامحة، فتشلها وتسلب إرادتها في نزعة صوفية تثبت أن الشاعر أعظم العارفين.

ومن ثمة عاد رامبو إلى تلك المنزلة الإغريقية، التي منحت للشاعر منزلة البصير والرائي ليمنحها تفسيرا مغايرا، حيث بلوغ المجهول ورؤية ما لا يرى وسماع ما لا يسمع، لتتبع الحقيقة الجوهرية الكامنة خلف الظواهر الخارجية.

من هنا أضحت علاقة الشاعر بالمخيلة الطاغية المستبدة، التي تنطلق إلى المجهول لتتحطم عليه علاقة ضرورية، يحتل فيها الخيال المتفكك المنطلق مرتكزا أساسا لإلغاء الفروق المادية والمنطقية بين الأشياء، والتحليق في عوالم مغايرة، إنها المخيلة الحرة القوية المقنعة أو الحلم.

هذا الحلم الذي يعد القوة الحقيقية التي يمتلكها الفنان، ويتفوق بها على الواقع ويسمو عليه، لذا رأى السرياليون في رامبو أحد آبائهم وروادهم.

ويبدو أن رامبو قد تجاوز مصطلح الخيال الخلاق، ليتحدث عن الحافز الخلاق فيقول: ينبغي أن تكون ذاكرتك وحواسك غذاء للحافز الذي يدفعك إلى الخلق، أما العالم فماذا سيتبقى منه بعد أن تتركه وراءك، شيء واحد مؤكد إنه لن يحتفظ عندئذ بشيء من مظهره المألوف.

ومطية رامبو في تلك الرحلة نحو المجهول تتحدد بقيمة الكلمة الكامنة في نغمها وصورتها وإيحاءاتها وإشعاعاتها الموسيقية والمعنوية، حيث تطلق طاقات وقوى لا منطقية، وتلك القوى توجه مسار العبارة وتؤثر تأثيرا سحريا غير عادي، ومن هنا تحدث عن كيمياء الكلمة وتفاعلاتها في قوله: لقد ابتدعت لون الحروف الصوتية Aأسود ، Eأبيض، Iأحمر، Oأزرق، Uأخضر، حسبت شكل وحركة كل حرف ساكن، وأوهمت نفسي أنني تمكنت بفضل إيقاعات فطرية من اختراع كلمة أو لغة شعرية يمكن في وقت قريب أو بعيد أن تصبح في متناول جميع الحواس ، لقد تدبر الشاعر ظلال الحروف الصوتية، وأحسن استغلال الارتباطات بين الأحرف الجامدة والساكنة.

ولقد أضفى هذه الكيمياء على اللغة الشعري عناصر الإغراب والنفور والتشويه مما أنتج درجات عالية من الغموض.

الحداثة عند ملارميه:

يتفق ملارميه مع بودلار في غياب شعر العاطفة، المخيلة الطاغية، تدمير الواقع المألوف الاعتماد على الإيحاء بدل الفهم استغلال الطاقات الموسيقية للكلمة، إذ يتميز شعر ملارميه بكونه شعر هامس حي يتساوى فيه الوجود المطلق بالعدم، يطبع على الأشياء العادية العدم ويحيلها إلى أشياء غامضة زاخرة بالأسرار (إلغاء وجود الأشياء في الوقع لتحيله إلى وجود في اللغة) تحطم الأشياء أو تلغيها لترتفع بها إلى مستوى الماهيات المطلقة.أي الإغراب الشامل لكل ما هو مألوف وتجريد الأشياء من شيئيتها.

ولا شك أن ملارميه وتابعيه يبعثون ما يمكن أن نسميه عقيدة اللفظة التي ظلت حية في العصور الوسطى، والفرق بين القدامى والمحدثين هو أن هؤلاء لا يريدون تأكيد حقيقة دينية ونظاما موجودا، إنما يقصدون المغامرة في آفاق المجهول.

يقول ملارميه: ان الشعر يختلف كل الاختلاف عن الحماس أو البحران العاطفي، إنه في رأيه تناول للكلمات على مقتضى وزن وإيقاع مطلق، بحيث تصبح صوتا يختفي وراؤه الشاعر والقارئ معا.

ويقول أيضا إن روح الشاعر مركز ذبذبة لانتظار غير محدد، وهو وصف يستبعد كل ما يتصل بالنفس من صفات وأسماء ويقول في عبارة أبسط إن مهمة الأدب استبعاد السيد الذي يكتبه.

ومن ثمة فالأكيد أنه ليس للفن أية صلة بالأمور العملية وليس للعمل الفني أي شأن بالمطامع والمصالح؛ لأنه خالص يكفي نفسه بنفسه، كما أن الكتابة لعب وبريق كذب، والمقصود بذلك هو التحرر من الهدف والمنفعة، بل الحرية المطلقة للروح الخلاق، لأن ما ينتجه الكاتب لا واقع وما يصل إليه شيء مؤقت.

إن المادية والعرضية التي يتصف بها الحاضر الذي ينفلت في كل لحظة من حياتنا لا قيمة لها، إذا قيست بماض انقضى ومستقبل لم يتحقق بعد، غير أنه إذا كان للماضي والمستقبل كل هذا الدور في حياتنا العقلية، فإن الوعي نفسه يمكن أن يصبح عدما.
ويقول ملارميه: وجدت الجمال بعد أن وجدت العدم، فهو يربط بين الكلمة والجمال التي تعد مكانا يولد فيه العدم ويدرك وجوده (الأوزان هي الوعاء الذي يحتوي الواقع الذي تم إعدامه)

وبذلك فالإبداع الشعري معناه تجديد فعل الخلق اللغوي الأصيل تجديدا حاسما، بحيث يكون على الدوام هو قول ما لا يقال، وقد حاول ملارميه في إنتاجه أن يحتفظ للقول الذي يقال ببدائيته وأصالته الأولى، بحيث تحميه صعوبته من كل فهم محدود، وتقيه من السير في الطرق العادية المألوفة، فالكلمة عند الشاعر تريد أن تكون نشازا صريحا لكل لغة سوية.

من أجل ذلك يقول ملارميه: إن الأدب تحليق صامت إلى المجرد، وبذلك يمارس تصوف العدم وهو ابعد من تصوف التعالي(المثالية الفارغة)، وقد صرح أن أدبه طريق مسدود، حيث تلغي فيها الكتابة نفسها.

إن الإيحاء هو الهدف من الأدب، الإيحاء بالأشياء لا تسميتها أو وصفها وصفا مباشرا، ذلك لأن تسمية الشيء تضيع على القارئ ثلاثة أرباع المتعة الأدبية(متعة التخمين والحدس التدريجي) ومن أجل ذلك قال تلميذه فاليري: إن معنى أبياتي هو ذلك الذي يعطيه لها القارئ.

لقد ارتفع ملارمية بالمخيلة إلى مقام أرقى، حيث أصبحت هي المكان الذي يتحقق فيه الوجود العقلي للموجود المطلق،(السماء الزرقاء، البياض المثال، الحلم العدم هو الحقيقة الخلاص من كل صلة (المطلق جوهر الوجود الخاص))

إن هناك أنا وذاتا قد حلت محل الأنا، وهذه الأنا غير شخصية، بل هي المكان الذي يحقق فيه العالم أو الكون ذاتيته العقلية والروحية يصل الوعي بنفسه (الموجود المطلق يتحقق في الإنسان باعتباره اللغة قبل كل شيء/ يولد في اللغة التعبير عن الحضور كأنه غياب وهذا الغياب يعادل المطلق وبالتالي الكلمة هي الفعل الخلاق للروح الخالص

اقتنع ملارميه بالعلاقة القائمة بين الشعر والسحر(إن هناك علاقة بين الطقوس القديمة والسحر الكامن في الشعر)، الشعر نوع من العرافة والتكهن، إنه التعويذة لكونه تأملي مجرد، والشاعر بالنسبة له ساحر حروف، وثمة أيضا سحر اللغة الذي يتصل بقوة تأثير النغم وطاقة الكلمات (الإيحاء) على تحريك الشاعرية نفسه.

يقول الشاعر: إن الشاعر يترك للكلمات حرية المبادرة، وهذا السحر هو الذي منح لمضموناته غموضا.

ولقد وردت عبارة الشعر الخالص في كتابات بودلار وسانت بيف وملارميه النقي من الشوائب مناظرة لعبارة العقل المحض الخالص.

حيث يخلو الشعر من الإحساس (التجرد)، عندما يخلو الشعر من المضمونات التعليمية والاجتماعية ونشوة القلب ويصبح قادرا على الإيحاء.

ونستطيع القول بأن الحداثة الغربية استلهمت «باطنية برجسون)،(ووجودية كيركجارد وهايدجر)،وفلسفة التحليل النفسي لدى فرويد ويونج وهي الاستلهامات التي نشأت في حضنها ضفائر أدبية كالسريالية والعبثية والتصويرية وتيار الوعي والرواية الجديدة